ان أثـر الفكـر الغـربي والممـارسة الغربية في صورة فلسطين والفلسطينيين ومساندة الفكر الصـهيوني ذاته يبدو خلال امثلة كثيرة . ففكرة توطين اليهود الاوروبيين في فلسطين بدأت تأخذ مظهراً عمليـاً بعـد حملات محمد علي (١٨٣٣ ـ ١٨٣٨) ضد الدولة العثمانية، حيث وقع اختيار القوى الاوروبية على يهود اوروبا ليكونوا ذلك الكيان الغريب وسط الكيان العربي المتجانس[١٥].

ومن هنا بدأت، بالفعل، عملية استغلال الاحلام اليهودية المندثرة وتغذية الشعور بأن فلسطين هي بلد اليهود الاصلي، وانها المكان الوحيد الذي يمكن ان يزدهر فيه اليهود قومياً؛ كما بدأت تغذية مشاعر اليهود الزائفة نحو فلسطين، وتم، في الوقت عينه بالطبع، تجاهل الفلسطنيين. في فرنسا، ظهر كتاب بعنوان «المسألة الشرقية الجديدة» ذكر فيه الكاتب «... ان اليهود سوف يكونون حملة المدنية الاوروبيـة، ودعـاهم الى الذهـاب الى ارض الاجداد ». وفي ايطاليا، قال ماتزيني، الزعيم القومي الايطالي، لليهود: «انكم بدون وطن تبقون بلا اسم او علامة مميزة، وبلا صوت او حقوق». وفي المانيا، لام المفكر الالماني هيردر اليهود «لعدم بذلهم جهداً للعودة الى وطنهم فلسطين ليزدهروا فيه»[١٦].

اذن، مارس الغرب عملية الهاب الحماس اليهودي تجاه الاستيلاء على وطن الفلسطينيين؛ ولم يكتف بذلك، بل دعمهم مادياً لتحقيق تلك الغاية.

وبغض النظر، مؤقتاً، عن رغبة الغرب في التخلص من اليهود ومشكلتهم (ولكن في فلسطين)، فان البعد العنصري للممارسة الاستعمارية الغربية الاستيطانية المعروفة عن الغرب في اماكن أخرى، مورست في فلسـطين، ولكن بأيدي صهيونية . كان الصهيونيون العنصر الذي عليه أن يتولى نشر الحضارة الغربية في فلسطين ! ومن ثم، فان غياب الفلسطينيين من السياق العام لحركة الغرب نحو الخـارج يضحي امـراً طبيعياً ! ولعل هذا الفهم هو الذي دعا المؤرخ البريطاني المعروف، ارنولد توينبي، الى القـول، في أحـد رسائله، عقب حرب حزيران (يونيو) ١٩٦٧ مباشرة: «... لقد عانى الفلسطينيون العرب من الذل، لأنه بتأسيس دولة اسرائيل لم يستشاروا، وقد وقع ذلك على رؤوسهم وتمت معاملتهم كالفطريات»[١٧].

ان تجاهل الفلسطينيين، ونبذهم خارج اطار الانسانية السوية، والرغبة في احلالهم بالعنصر اليهودي، يتوافق مع المفهوم الغربي والتصور الغربي لسكان المعمورة. فالمرحلة الاستعمارية شهدت التقسيمات التي اشاعها الرجل الابيض الاوروبي للشعوب والامم. وقد وقع الفلسطينيون، وغيرهم، ضحية لهذه التقسيمات. فقد اعتبر الرجل الابيض نفسه حامل اعباء الحضارة، واعتبر السكان الاصليين، في مناطق كثيرة، ومنها فلسطين، انصاف برابرة (الاميركتين وجنوب افريقيا والكونغو، امثلة بارزة الى جانب فلسطين). وهذه المنطلقات تندرج تحت بند عامل «نشر الحضارة» في نشوء الظاهرة الاستعمارية عموماً، والاستيطانية خصوصاً[١٨]؛ كما تنسجم مع التقسيمات التبريرية الاخرى التي ظهرت في الغرب. فالعالم عندهم ينقسم الى شعوب متمدنة، وغير متمدنة، وشعوب متقدمة، ومتخلفة، والى عالم البيض، وعـالم الملونين غير البيض، والشرق والغرب[١٩]. ويحق لنا، بناء على استعراض المـوقف الغربي من فلسطين، وما تمخض عنه من مأساة لها، ولشعبها، ادراك ان هذا الغرب قد وضعها في خانة المناطق المتخلفة، التي يسكنها، ان كان ثمة سكان فيها، بعض الملونين في الشرق ! وهذه الصورة القاتمة عن فلسطين تلقفتها الحركة الصهيونية، وطورتها . وبذلك لا تخرج الصورة الصهيـونية اللاحقة حول فلسطين، عن كونها نسخة معدلة الى الأسوأ لتلك الصورة التي شكلها الغرب، وذلك بحكم ان الصهيونية رافد من روافد الفكر الغربي في التحليل الاخير.